مجلة كلية
الدعوة الإسلامية
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة
العدد الرابع
1987

- بين داعٍ ومبشّر
- نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام
- الألمان والقرآن
- بعض علماء النفس يعودون إلى رشدهم
- نصوص أجنبية مترجمة

بعض علماء النفس يعودون إلى رشدهم

الدكتور
عمر بشير الطويبي

التقليعة في العلم

عندما يبحث العلماء في أي فرع من فروع المعرفة فإنهم يعتمدون على جهد من سبقهم في وصف وتفسير الظاهرة التي يدرسونها ، ذلك لأنهم لا يستلهمون وحياً من السماء ، ولا يحق لهم بالمنطق العلمي أن ينطلقوا من فراغ يختارونه بينما توجد من حولهم أفكار متداولة فيه بين أقرانهم ، ولأن العلم أيضاً ليس أمراً سهلاً بحيث يستطيع كل باحث أن يصنع علماً له ، بل أقصى ما يستطيع أن يحققه الباحث الواحد هو أن يضيف تفسيراً ، أو يلفت الانتباه إلى خطأ

شائع ، أو أن يقترح وسيلة جديدة لجمع بيانات معينة ، أو أن ينتقد تحليلاً قدّمه غيره بإظهار نقاط القوة والضعف فيه . ولذلك ترى الباحث الواحد يقضي عمره الطويل أحياناً في صنعة العلم ولا يترك إلاّ أثراً قليلاً من حيث الاضافة في مجال بحثه ، لا لقصور في شخص الباحث نفسه ، بل لأن العلم صنعة صعبة ودقيقة فيها جمع الماضي بالحاضر ، والتأمل الذي لا يمل من الحذف والاضافة والتعديل والخاضع لمقاييس لا تعرف المجاملة أبداً . ومن هنا لم يكن العلم يوماً صنعة الكسالى أو المترفين ، أو المتسرعين ، أو المتلهفين إلى النفوذ والسلطان . فالعلم ليس نزهة في قطار ، ولا هو جلسة في حفلة سمر ومؤانسة ، بل هو جمع وتحقيق وتحليل وتجريب ومعاناة مع المعلومات والافتراضات.

ولهذا فإن العلم في أي فرع من فروع المعرفة لا يتقدم بسرعة ، بل يسير الأمر فيه ببطء يطول أو يقصر من حيث الزمن حسب طبيعة موضوعه ، ووسائل بحثه ، ووفرة المبدعين فيه ، وضخامة تمويله والانفاق عليه ، ومدى تقبله من المجتمع الذي يحدث فيه . ولذلك تجد الباحثين اللاحقين يتأثرون كثيراً بأفكار الباحثين السابقين لأنها تمثل القاعدة التي ينطلقون منها في أبحاثهم بما تقدمه لهم من معونة في تحديد محتوى ما يدرسونه والطريقة التي يدرسونه بها . وهكذا فإن العلم ، مثله مثل أي ظاهرة إنسانية يخضع في انتشاره وتقبله من قبل الباحثين أو من الناس العوام إلى عوامل الموضة والتأثر والاعجاب وبريق الجدّة فيه فتسود نظرية معينة فترة ثم تختفي ، وتبقى طريقة معينة هي طريقة العمل والتجريب فترة ثم تختفي ، وتأتي غيرها ، وغيرها ، وهكذا . وبكلمات أخرى تصبح النظرية الجديدة هي «المألوف» عند العلماء بحيث تسيطر على أفكارهم فترة إلى أن تفقد بريقها، ويتخلصون من سحرها ، ويقيمونها بعد ذلك بصورة خالية من الأنفعال ويضعونها في حجمها الصحيح ، وذلك بسبب ما يظهر لهم بعد الممارسة والتطبيق من جوانب الضعف والقوة فيها ، وبفضل ما يكتسبونه من خبرة خلالها تمكنهم من استلهام نظرية جديدة وتفسير جديد بدرجة كفاءة أعلى ، يتعلقون به أيضاً لفترة ثم يهجرونه إلى نظرية جديدة على مستوى أدق وأفضل في التفسير والكفاءة من سابقتها ، وهكذا دواليك . فالعلم ، إذن ، كأي ظاهرة إنسانية جديدة ، يأخذ بريقه بالأبصار ، وتسيطر على المتفرجين شخصيات أبطاله ، حتى يخرج تفسير جديد ، وعالم جديد ، ونظرية جديدة . وهكذا تتراكم المعرفة الانسانية طبقاً فوق

طبق ، قديمها أساس حديثها ، وجديدها انعكاس لقديمها وامتداد له ، ويرتبط الجميع بلحمة الرغبة في معرفة الحقيقة ، كالشجرة الباسقة ، تصل بين ثمارها ، وجذورها روح الحياة والنمو والمؤازرة فتسند بعضها بعضاً .

علم النفس ونظرية التطور

خضع علم النفس ، مثل غيره من العلوم إلى تأثير العوامل الايجابية والسلبية المؤثرة على البحث العلمي . فقد سيطر عليه بين كل فترة وأخرى تفسير نظرية معينة ، أو شخصية أحد العلماء البارزين فصبغت اهتمام علم النفس من حيث الموضوع وأسلوب أدائها ردحاً من الزمن، ثم ظهرت نقاط ضعفها بعد ذلك، فتركت الطريق لغيرها لأنه أكثر ملاءمة منها في تفسير المشكلات التي تواجه الانسان . ومما زاد الأمر صعوبة بالغة في علم النفس كونه علماً يدرس سلوك الانسان الذي يعتبر أكثر المخلوقات تعقيداً من ناحية التركيب العضوي ، والأداء الوظيفي ، والتكيف البيئي ، والتفاعل الاجتماعي ، ولكون أن الدارس هو المدروس نفسه مما يضع صعوبات جمة في وجه الباحثين .

فمثلاً ، سادت نظرية أن الانسان مكون من جوهرين منفصلين هما «النفس» و«الجسم» لكل منهما خصائصه وصفاته المميزة عند جميع فلاسفة الأغريق مثل أفلاطون (427 -347 ق. م) وأرسطو (384-322 ق.م)، كذلك ساد هذا الاتجاه عند فلاسفة المسلمين كالفارابي (870-950م) وابن سينا (980-1037 م) والغزالي (1058-1111 م) وابن خلدون (1332-1406 م).

وفي القرنين السابع والثامن عشر سادت نظرية أن العقل والجسم مظهران مختلفان لكيان واحد عندما تقضي المناسبة ، وجاء ذلك في كتابات ديكارت (1596-1650 م) وسبينوزا (1632-1677) ولايبنتز (1646-1716) . وهكذا انتقل الحديث من الانفصال بين الجسم والنفس إلى الحديث عن كيفية التكامل بينهما . فالترابطيون قالوا بأن الأفكار والمشاعر تترابط في ما بينها بطريقة معينة لتكون احساسات وأفكاراً معقدة ، كما جاء في كتابات توماس هوبز (1588-1679) وجون لوك (1632-1704). ورمى الألمان بسهمهم في الميدان بنظرية جديدة وقتئذ هي نظرية الملكات العقلية التي ترى أن للعقل أقساماً مستقلة مثل الذكاء ،

والانفعالات ، والارادة ، وما شابه ذلك من أفكار عبّر عنها زعيم الفلسفة الألمانية كانط (1724-1804) .

واختصاراً في ذكر الأمثلة عن التلاقح العلمي ، وظهور النظريات التي تسود مجال البحث في علم النفس فترة لتعقبها غيرها في الفترات اللاحقة ، ينظر المرء إلى تطور المدارس النفسية مثل مدرسة الاستبطان التي ركزت على دراسة الشعور (تيتشنر ، 1867-1927 م) ، فالمدرسة الوظيفية التي ركزت على وظائف العقل بدلاً من مكوناته (جون ديوى ، 1859-1952 م) ، إلى المدرسة السلوكية التي نظرت للانسان على أنه كالحيوان ليس له شعور أو عالم داخلي عقلي (واطسون ، 1878 -1958)، إلى المدرسة الجشتالتية التي رفضت تحليل الشعور إلى عناصره الأولية ، واعتبرت أن الادراك الكلي هو أساس الدراسات النفسية (فيرتهايمر ، 1880-1943) ، إلى المدرسة الغرضية التي ركزت على أهمية الغرائز كعوامل دافعية للانسان (مكدوجال ، 1871-1938 م) ، إلى مدرسة التحليل النفسي التي ترى في اللاشعور المحور الذي تدور عليه شخصية الفرد في نموها النفسي الاجتماعي (فرويد ، 1856-1939) .

وإذا كان علم النفس قد تطور في المائة عام الماضية حيث بدأ يستخدم الطريقة العلمية في جمع بياناته وتحليلها مما جعله علماً من العلوم ، فإنه قد حقق تقدماً كبيراً في مجال بحثه في نقاط كثيرة مثل دراسة الاحساس والادراك ، والتعلم ، ودراسة القدرات العقلية ، والعلاقات الانسانية ؛ كما أنه واجه عثرات أيضاً في مجال تفسير شخصية الانسان وخاصة جانبها اللاشعوري ، وكذلك في مجال معالجة الاضطرابات الانفعالية عند الشاذين سلوكياً والمرضى منهم بالخصوص .

ولعل أحد الأسباب التي أعاقت سير علم النفس في فهمه للسلوك البشري ، ومكنونات النفس البشرية هو انبهار علماء النفس بنظرية التطور (Darwin, 1859) التي ظهرت كنظرية علمية في أواخر القرن التاسع عشر على يد تشارلس دارون ، ولم يستطع العلماء منها فكاكاً حتى الآن رغم ظهور بوادر مهمة في السنين الأخيرة تنبىء بأن نهاية تأثير هذه النظرية على العلوم السلوكية ومنها علم النفس قد اقتربت . إن تخلص العلوم السلوكية من نظرية التطور التي ترى في الانسان حيواناً مثل بقية الحيوانات ، والنظر إليه نظرة جديدة باعتباره مخلوقاً خاصاً يجعل هذه

العلوم توجه نظرها في البؤرة الصحيحة لفهم شخصية الانسان ، وقضاياه المعاصرة ، وربما بالتالي إعادة تصحيح تفسير وفهم تاريخه الماضي بما يعكس حقيقته الانسانية المميزة في هذا الكون الواسع . وفي هذا الاطار يتحمل المسلمون المشتغلون بالعلوم السلوكية جزءاً كبيراً في البحث عن الحجج العلمية النظرية والتجريبية التي تؤكد حقيقة التفسير القرآني للنفس الانسانية والسلوك البشري في الحياة الدنيا . إن تحقيق هذا الهدف لا يتأتى ببقاء المسلمين مقلدين للغرب أو الشرق ، بل عن طريق الابداع والمثابرة والانطلاق من النظرة الاسلامية في التأمل والتحليل .

نظرية التطور

جاءت هذه النظرية ، كما ذكرت سابقاً ، على لسان عالم الأحياء البريطاني تشارلس دارون (1809-1882 م) في القرن التاسع عشر ، والتي ذهب فيها إلى أن جميع المخلوقات الحية (غير النباتية) قد نتجت أصلاً من سلسلة واحدة ، وتطورت عن بعضها حسب الظروف المعيشية والبيئية والطبيعية بحيث ظهرت أنواع مختلفة منها بسبب صراعها من أجل البقاء وقدرتها على التكيف لتحقيق ذلك . وقد بدأت المخلوقات ، أول ما بدأت ، حسب رأي دارون ، بالمصادفة حيث ظهرت للوجود خلية حيوانية حية أخذت تتكاثر عن طريق الانقسام للخلايا ، ثم تشكلت في كائنات حية دقيقة أخذت تتكيف مع بيئتها ، وتتطور ضخامة في أحجامها ، وتعقيداً في أجهزتها حتى ظهر ما نرى اليوم في الدنيا من مخلوقات حية مثل الدجاج ، والأسد ، والفيل ، والانسان . وقد انقرض بعض هذه الكائنات لعدم قدرته على البقاء والتكيف للظروف الطبيعية المستجدة مثل حيوان الديناصور الضخم الذي وجدت له بقايا مردومة في شرق آسيا ، وبعضها استمر في الوجود بفضل قدرته على التكيف عصبياً وفسيولوجياً حتى يومنا هذا .

إن الدليل الذي يعتمد عليه دارون في بناء نظرية التطور هو التشابه بين الانسان والحيوان في التشريح البايولوجي ، وكذلك الوظائف التي تقوم بها أعضاء الجسم عند كل منهما . ويعني منطق هذه النظرية أن الانسان حيوان مثل غيره من الحيوانات ، وأنه يعلو قرود الشمبانزي مرتبة ، وأنه لذلك ليس مخلوقاً مميزاً ، بل هو من طينة الحيوانات وإليها ينتمي ، وأن الفرق بين الانسان والحيوان فرق في

الدرجة وليس في النوع ، وأن الأحكام التي تنطبق على الحيوان في الوظائف البدنية والسلوكية تنطبق على الانسان أيضاً .

وقد لقيت هذه النظرية رواجاً في أمريكا وأوربا عند ظهورها ولا زالت كذلك حتى اليوم لعدة اعتبارات منها :

(1) إن هذه النظرية تتفق ونظرة الإلحاد ، حيث إنها لا ترى للكون خالقاً مدبراً ومنظماً يحسن كل شيء صنعاً ؛ بل ترى أن الحياة بدأت بالمصادفة ، هكذا ! . وبسبب خيبة المسيحيين في أوربا وأمريكا من تعاليم الكنيسة المتناقضة حول الدين ، وجدوا في هذه النظرية حسب ظنهم المخرج المناسب لهم للتخلص من سيطرة التفكير الديني الكنسي المشوه لرسالة عيسى عليه السلام ، والذي لا يقبله العقل .

(2) إن هذه النظرية رفعت عن العلماء والباحثين القيود غير المعقولة التي كانت تضعها الكنيسة أمامهم والتي تحد من انطلاقتهم العلمية في البحث والتجريب . وعليه ، فإن هؤلاء العلماء وجدوا في نظرية التطور لدارون المفتاح الذي فتحوا به قفل الجهل والقيود التي أحاطتهم بها الكنيسة لعدة قرون .

(3) استغل المفكرون والعلماء اليهود هذه النظرية لتغريب المسيحيين وأصحاب الديانات التي تؤمن بعملية الخلق والإله الواحد عن دينهم ، وتشكيكهم في أهم ركن من أركان الدين ، وبذلك تتساقط تباعاً جميع الحجارة في بنائهم العقائدي فينقلبون تائهين وغارقين في بحار الشك والحيرة ، ويصبحون شيعاً وأحزاباً كل فريق منهم متمسك بما يعتقده خياله تمسك الجاهل الأحمق بالظلام الذي يعيش فيه . وقد ركز المفكرون وعلماء اليهود جهودهم في الترويج لنظرية التطور بصورة خاصة في العلوم السلوكية التي تدرس الانسان وعلاقته بأخيه الانسان .

(4) نظراً لما تنادي به هذه النظرية من أن الانسان حيوان مثل بقية الحيوانات تحركه الغرائز الفسيولوجية (يسميها بعضهم الدوافع الفسيولوجية) وهي الجوع والعطش والجنس وتجنب الأذى البدني ، فقد لقيت هوى عند ضعاف النفوس من الناس الذين بهرتهم أيضاً الاختراعات والاكتشافات الصناعية الحديثة التي هيأت للانسان الفرصة للاستمتاع بمستويات متقدمة من ظروف المعيشة والملبس والمسرة

واللهو وأوقات الفراغ ، فاعتنقوها ليرتاحوا من تأنيب الضمير الذي يلاحقهم بين الحلال والحرام الذي ارتبط بالدين واعتبر الانسان مخلوقاً مميزاً خصه الله بقواعد ونواهي تتماشى مع ذوق رفيع يليق بالانسان بعيداً عن درك البهيمية العمياء .

(5) ويذهب أغلب علماء النفس من اليهود الذين يوظفون العلم لخدمة أغراضهم الصهيونية والتخريبية للمعتقدات الدينية للشعوب الأخرى للقضاء على هذه الشعوب والسيطرة عليها ، إلى الدعوة الصريحة لهذه النظرية حيث ينادون بأن الانسان حيوان في نزعاته وحاجاته ودوافعه وكل سلوكياته ، وأن ما يعانيه الانسان الحديث من قلق وتوتر وضيق نفسي يرجع إلى القيود الدينية والحضارية التي قيد بها الانسان نفسه . إن الحل الوحيد لاخراج الانسان من هذا الشقاء النفسي يكون بانغماسه في الملذات من أكل وشرب وجنس دون رادع ، ودون تحرج من أي سلوك حتى ولو كان شاذاً .

وهكذا استشرى تأثير نظرية التطور فغطى جميع جوانب الحياة في الغرب الرأسمالي والشرق الشيوعي فشمل العلم والأخلاق والأدب والفن والاقتصاد والسياسة في تلك الأقطار ، بحيث أصبح الانسان عبارة عن حيوان شرس مفترس يفكر في بطنه وفرجه ، وفي استغلال غيره تطبيقاً لعبارة دارون التي تقول بأن البقاء للأصلح Survival of the Fittest . فانطلق الأوربيون كالوحوش يستعمرون الشعوب الضعيفة ويمصون خيراتها ، وينتهكون حرماتها ، ويهدمون مقدساتها ، ويشوهون تراثها وقيمها في موجة الاستعمار الحديث في بداية القرن العشرين والذي لا زال يعبر عن وجهه البشع في فلسطين ، وناميبيا ، وجنوب افريقيا ، وغيرها من المناطق التي لا زالت ترزح لغطرسة المؤمنين بدارون ونظريته في أصل الأنواع التي ترى في القرد ابن عم للانسان ، وأن من حق القوي أن يأكل الضعيف .

نظرية التطور تفسير غير صحيح

إن النظرية ، أي نظرية ، هي عبارة عن تفسير يعطيه الباحث لما يشاهده من علاقات معينة بين مجموعة من الحقائق الواقعية المتناثرة ، أو الاستدلالات المنطقية التي توحي بها بعض الشواهد الموضوعية . هذا هو معنى النظرية من الناحية العلمية ، وهذا هو دورها في خدمة العلم . وعليه فالنظرية ليست قانوناً صادقاً

صحيحاً ثبت بالتجربة المتكررة صدقه ، كما أنها ليست صورة كاملة مائة في المائة لعمليات موجودة في العالم المادي ؛ بل كل ما تعنيه هو أنها صياغة استدلالية تصف العلاقات التي يعتقد بأنها سائدة في بناء شامل من الحقائق . وهذا يبين أن النظرية تمثل الاطار الفكري الذي ينطلق منه الباحث ، وأنها تتعدى الافتراض العلمي فقط بما يتوفر لها من أدلة علمية لا زالت من ناحية أخرى ناقصة إلى الحد الذي يجعلها أقل رسوخاً من القانون (حلمي المليجي ، 1972) .

وهذا يعني بطلان الاعتقاد السائد لدى العوام الذين يعتقدون بأن النظرية العلمية صادقة صدقاً لا شك فيه في تصورها ، وأنها حجة دامغة ضد معارضيها ، وأنها قمة الابداع العلمي ، والاستدلال النظري . وعليه فالنظرية مجرد تفسير قد يصدق كله أو بعضه على الواقع الخارجي ؛ وقد يكون أيضاً سطحياً ساذجاً يلمس ظاهر الأمور بدلاً من أن ينفذ إلى خفاياها ؛ كما أنه قد يكون تصوراً متحيزاً لقيم الباحث ومعتقداته في الكون والحياة ، ومساعداً له على تحقيق طموحاته الشخصية أو الدينية أو القومية . إن خصائص القصور والضعف هذه هي التي تتصف بها نظرية التطور لدارون ، ذلك أنها تعاني من نقاط الضعف التالية :

(1) إن التشابه التشريحي الذي نجده بين جميع الكائنات الحية يمكن تفسيره على أنه يدل على وحدة الخالق ، وأن صانعها جميعاً هو صانع واحد ، لأنه خلقها من خامة واحدة ، وبأسلوب واحد ،وبخطة واحدة (مصطفى محمود ، 1974) . وهكذا يتبين أن هذا التفسير الذي يقدمه مصطفى محمود أكثر عقلانية من الناحية النظرية والواقعية والمنطقية ، ودلالة على قدرة الله العظيمة في الخلق القادر على أن يقول للشيء كن فيكون . ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ (سورة يس ، آية 81 و 82) .

(2) يعترف العلماء بأنه بقدر ما يوجد هناك من تشابه تشريحي بين المخلوقات في المملكة الحيوانية فإنه يوجد بينها تمايز واختلاف تشريحي شكلي ووظيفي يناسب طبيعة وأسلوب حياة كل منها . ولا شك أن العجز عن تفسير هذا التغير الحاصل في أي فئة أو نوع من الحيوانات ، وإرجاع ذلك إلى عامل « المصادفة » لأمر يدعو إلى العجب حقاً ! . إنه لغريب كل الغرابة أن يقبل العلماء (وهم أهل المنطق والتجربة والقياس والاستدلال والتأمل والخيال العلمي) بمشجب «المصادفة» حيث

يعلقون عليه كل عجز في التفسير ، ويرفضون القبول بمبدأ أكثر سموا وعقلانية ووجاهة وهو وجود خالق واحد منظم قادر هو الله . ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجليه ، ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ (سورة النور ، 45) . إن التفسير الوحيد لموقف العلماء هذا هو إصرارهم على الكفر والإلحاد.

(3) تقول نظرية التطور بأنه من القرود ظهر الانسان ، غير أن العلماء الذين يؤمنون بنظرية التطور يعتذرون عن تفسير النقلة النوعية والكيفية في الخلق من حيث النواحي التشريحية والوظيفية من القرود إلى الانسان . ويسمي العلماء هذه النقلة الصعبة التفسير « الحلقة المفقودة »، أي الحلقة التي لا يعرفون لها تأويلاً . ولا شك أن أي شخص عاقل لا يقبل استخدام علماء نظرية التطور لقياس معين باعتباره قياساً صالحاً لإثبات نظريتهم ، ثم يتخلون عنه بعد ذلك لعجزه عن التفسير ، ويعزون عدم قدرتهم على الاستمرار في القياس إلى غموض ما يقيسونه ، وليس إلى عدم صلاحية المقياس . ولا شك أن منطقاً مثل هذا المنطق لا يقبله أي عقل سليم .

(4) يقر العلماء بأن الكون كله بما فيه المملكة الحيوانية هو أمر في غاية التعقيد والتنظيم والتدبير بما يشير إلى أن عملية الخلق عملية ذات هدف وغاية وذات وسائل محددة ودقيقة بما يحقق تلك الأهداف . وهذا ما يؤكد بأن هناك خالقاً قوياً عالماً خبيراً يعرف ماذا يريد ، وكيف يريده ، وقادراً على تحقيق إرادته في ما نراه من مخلوقات في قمة التنسيق والنظام . إن إسناد العلماء الذين يؤمنون بنظرية التطور ، خلق هذا الكون إلى مجرد «المصادفة» أمر لا يمكن قبوله بسهولة ؛ بل يتنافى مع أبسط مراتب الفهم والاستبصار ، ولا يعني موقفهم هذا إلاّ أنهم يكابرون تعنتاً وجهلاً وكفراً بالله ، أو أنهم يفعلون كل هذا من أجل غواية الناس وإفساد أخلاقهم ، وتحطيم رابطة الايمان التي تربطهم بربهم ، ليعم الفساد الأرض ، ويتحقق حلم الشيطان بغواية الناس عن الطريق المستقيم وهو طريق الايمان بالله خالقاً واحداً . أيها أقرب إلى العقل والمنطق الاقرار والاعتراف بأن وراء هذا النظام الكوني منظماً بارعاً قادراً يفوق كل خيال بشري ، أو الاقرار والاعتراف بأن هذا النظام الكوني الراقي حدث بالمصادفة؟؟

(5) تتشابه الكائنات الحية تشريحاً ، ومع ذلك تختلف في قدراتها الوظيفية

بصورة فطرية مما يدل على أن الخلق أصلاً كان خلقاً منفصلاً . أي أن الله خلق الانسان مباشرة وأعطاه قدرات معينة ، وخلق كل نوع من الحيوان مباشرة بخصائص وامكانيات معينة . ولذلك فالانسان هو المخلوق الوحيد القادر على الكلام واستخدام اللغة وربط ماضيه بحاضره ومستقبله عن طريق اللغة التي تتيح له التعبير عن قدراته التجريدية والرمزية . كما أن الجمل ، مثلاً ، هو الحيوان الوحيد الذي يستطيع أن يعيش بدون ماء في الصحراء لفترة طويلة ، كما أن الحوت لا يعيش خارج الماء ، والطير هو الكائن الحي الوحيد القادر على الطيران لمسافات طويلة ، وهكذا . إن هذا التنوع الوظيفي الكيفي لا يدل على أن هذه الأحياء توالدت من بعضها مصادفة ؛ بل يدل دلالة واضحة على أن عملية الخلق عملية هادفة منذ البداية ، وأن كل نوع منها قد خلق لوحده لغايات محددة ، ووظيفة معينة في نظام الكون المتناسق والمتكامل .

إن نظرية التطور نظرية عاجزة عن الاقناع العلمي والعقلي لأنها تفتقر إلى الدلائل والشواهد الكافية ؛ كما أنها نظرية أساسها التفسير والخيال البشري الذي يستند على حجر واحد هو مجرد التشابه في الخلق . وكما هو معروف فإنه لا يمكن القبول بنظرية عرجاء تقوم على رجلٍ واحدةٍ ، وتتجاهل في نفس الوقت أوجه الاختلاف الكثيرة التي نراها بين المخلوقات . وكما سبق القول فإن النظرية ، أي نظرية ، هي أساساً تفسير ورأي شخصي لبعض الشواهد ، وكلنا يفسر الأمور من نظامه القيمي وإطاره الثقافي . فإذا كان دارون قد جاء بنظريته التطورية بما يتماشى مع فكره الإلحادي ، فإننا نؤمن بحقيقة الخلق المتميز من خالق عظيم علام خبير قادر على أن يقول للشيء كن فيكون ، ليس في مجال الحيوان فقط ، بل في مجال النبات ، والجماد ، وهذا الكون الكبير الدقيق الذي لا يعرف مداه إلاّ الله سبحانه وتعالى .

النزعة الانسانية في علم النفس

بدأ الاهتمام بعلم النفس الانساني Humanistic Psychology خلال الستينات من القرن العشرين . ويقصد بعلم النفس الانساني هو ذلك العلم الذي يرفض نظرية التطور ، وينطلق من نظرة خاصة للانسان باعتباره مخلوقاً مميزاً . كما يقوم هذا العلم على أساس النظر إلى الانسان ككل في دراسته لشخصيته ، وليس

بالتركيز فقط على جانب واحد من جوانبها (Child ، 1981) .

وبدأت النزعة الانسانية في علم النفس تنمو في مصحات العلاج النفسي بالخصوص ، عندما وجد العلماء والمعالجون أن استخدام المفاهيم والوسائل العلاجية التي تقوم على أساس النظر للانسان باعتباره حيواناً لم تجد شيئاً في علاج مرضاهم . ذلك أن هؤلاء العلماء والمعالجين قد تأكدوا بأن الاضطرابات النفسية التي يعاني منها الانسان لا تعود إلى عدم إشباع حاجاته الجسمية في أغلب الأحيان ، بل تعود إلى عدم إشباع حاجاته الانسانية النفسية التي بها يحقق وجوده ، ويهدأ باله . لقد تبين لهؤلاء العلماء أن الانسان لا يسعى مثل الحيوان فقط إلى إشباع حاجاته الفسيولوجية (الجوع ، العطش ، الجنس ، الدفء) بل يسعى أساساً من أجل تنمية نفسه وصيانتها (Sue ، 1981) .

وقد تأكد لهؤلاء الباحثين والعلماء بأن الاباحية الجنسية ، والرخاء الاقتصادي حتى التخمة ، وارتفاع مستوى المعيشة حتى النوم على سرير مائي ، والارتواء حتى الثمالة ليس من الماء الصافي فقط بل من جميع أنواع الخمور التي عاش فيها الانسان الأوربي والأمريكي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية لم تؤد إلى سعادة هذا الانسان ؛ بل إنها أدت إلى شقائه وتعاسته بسبب ما يعانيه من خيبة ومرارة وإحباط وتحلل أسري واجتماعي وهو يتخبط في درك الحياة الحيوانية التي ليست من شيمته الأصلية الانسانية . لقد وجد الانسان الأوربي والأمريكي نفسه عبداً لملذاته ، وحيواناً في منافسته وقساوته ، وتقطعت بينه وبين أفراد أسرته صلة الرحم ، وانسلخ عن وجهه قناع الحياء والخجل فانغمس في سلوك يتنافى مع فطرته الانسانية التي تعرف العفاف والشرف والقناعة والرحمة وعبادة الله . وهكذا ضاع الانسان الأوربي شرقاً وغرباً عن انسانيته التي فقدها يوم ارتضى دارون راهباً له ، وجعل نظريته في التطور الحيواني دليله ومنهجه . لقد اندهش علماء النفس الباحثون عن الحقيقة من مستوى التدهور النفسي والاجتماعي الذي وصل إليه الانسان الأوربي عموماً ، فعاد هؤلاء إلى رشدهم ، وأخذوا يدقون ناقوس الخطر ، ومنذرين الناس من أن الانسان قد غرق في بحر نظرية التطور ، وأنه ما لم ينقذ نفسه ، فإنه سينزل بنفسه وبحضارته إلى هاوية الدمار والاندثار والخراب . ومن أبرز العلماء والمعالجين النفسيين الذين يرفضون نظرية التطور ، ويؤكدون على أن الانسان مخلوق لا تربطه بالحيوانات أي رابطة إبراهام مازلو Abrahm Maslow ، وكارل روجرز Carl

Rogers ، وجـوردون ألـبـورت Gordon Allport ، وإيـريـك فـروم Erich Fromm ، وروللو ماي Rollo May .

وتقوم النزعة الانسانيـة في علم النفس على المبادىء الآتية التي تتماشى مع الطبيعة الانسانية ، وهي :

(1) النـظر إلى الانسان بـاعتباره مخلوقـاً مميزاً عن الحيـوان ، خلقه الله لـذاته وجوهره وبقدراته الخاصة به . وهذا معنـاه أن الانسان طيب بـالفطرة ، فهـو ليس حيواناً مفترساً تستند حياته على المنافسة والصراع والغلبة والغرائز الفسيولوجية ، بل إن الانسـان بطبيعتـه ميال إلى التعـاون والتآزر . وكـما يقول كـارل روجرز (1963) Carl Rogers فـإن الانسان طيب بـالفطرة ، ويتـطور نحو الأحسن ، وأنـه جديـر بالثقة .

(2) النـظر إلى حاجـات الانسـان النفسيـة للحب ، والانتـماء ، والابـداع ، وتحقيق الذات باعتبارها حاجات فطرية مثلها في ذلك مثل الحاجات الفسيولوجية . وهذا معناه أنه ليس صحيحاً ما يقول أنصار نظرية التطور من أن الحاجات النفسية للانسان هي حاجات مكتسبة تعلمها الانسان خلال مسيرته في التحضـر . ذلك أن كل إنسان لديه بالفطرة النـزعة لأن يحقق ذاتـه . وكما يقـول مادّي Maddi (1972) فـإن النزعـة لتحقيق الذات تعبـر عن نفسها في مـا يتصف به الانسـان من حب ، واستطلاع ، وابداع ، وفرح بالاستكشاف للأمور .

(3) إن الانسـان ليس مجرد وجـود لحمي فقط ، مثل الحيـوانـات التي تعيش لغايات مفروضة عليهـا وهي استفادة الانسـان من لحمها ، وحليبهـا ، وصوفهـا ، وجلدها ، وعظمها . فالانسان مخلوق خلقه الله خلقاً خاصاً ، وأعطاه القدرة في أن يكـون ما يشـاء . إذا كان الحيـوان يعيش ليأكـل ، فإن الانسـان يـأكـل ليعيش ، وليشحن نفسه بالـطاقة التي تجعله ينمـو عامـاً بعد عـام في استثمار الأرض والبحـر والجو وتسخيرها في خدمته . لقد قفز الانسان في فترة لا تزيد عن أربعة آلاف عـام هي تاريخه المسجل من حياة الكهوف إلى امتشاق السحب عبر الفضاء في مـركبات مريحة ليقف فوق القمر ، ويخاطب الدنيا من بعيد . هذا بينما لم تتبدل حياة الحيوان عما كانت عليه منذ آلاف السنين ، فلم يركب الحصـان دراجة ، ولم يكتب الحمـار شعراً ، كما أن القرد الذي يضحك عليه الانسان لم يبدع فكاهة واحدة .

(4) يتصف الانسان بخاصيته المميزة عن جميع الكائنات الحية الأخرى من حيث إحساسه بالانتماء ، وبالقربى وصلة الرحم والتوادد الانساني . فالانسان هو الكائن الوحيد الذي لا يقسو على أقربائه ونسله كما تفعل الكائنات الحية الأخرى . كما أن الانسان هو الكائن الوحيد الذي يأنف من القيام بأنواع السلوك التي تتصف بالخجل والحياء مثل الجنس مع أقربائه ونسله المقربين وهو ما تفعله الحيوانات دونما خجل أو رادع .

(5) لكي نفهم السلوك الانساني فهماً جيداً وصحيحاً ، فيجب على الباحثين في علم النفس وغيره من العلوم السلوكية التي تهتم بدراسة سلوك الانسان أن تكون دراساتهم وبحوثهم على الأشخاص وليس على الحيوانات . إن نتائج الدراسات التي تتم على القرود والكلاب والقطط والدجاج والحوت نتائج لا يمكن تعميمها لتشمل الانسان ، ذلك لأن الانسان ليس حيواناً ، وبالتالي فإنها تصدق على الحيوانات التي تمت دراستها فقط . إذا أردنا أن نعرف تفسير سلوك الانسان فيجب إذن أن ندرس الانسان . كما أن دراستنا لنفسية الانسان يجب أن تهتم بدراسة الانسان ككل ، وليس بالتركيز على بعض الجوانب دون الأخرى . فالانسان ليس حاجات فسيولوجية فقط مثل الحيوانات ، بل هو إضافة إلى حاجاته الفسيولوجية فإنه مدفوع أكثر في حياته بحاجاته النفسية الفطرية أيضاً وهي الحاجة إلى المحبة والانتماء والابداع وتحقيق الذات (Maslow ، 1962) .

(6) تلعب الاتجاهات ، والقيم ، والأهداف دوراً كبيراً وأساسياً في حياة الانسان باعتبارها خصائص مميزة للحياة النفسية الانسانية . وتؤثر الاتجاهات والقيم والأهداف في اختيارات الفرد وقراراته المعيشية والنفسية ، وذلك باعتبارها تعكس فلسفته في الحياة . إن الحيوانات جميعها تفتقر إلى هذه الأمور ولا تعرفها مطلقاً ، ذلك لأن الحيوانات لا يهمها إلاّ إشباع الحاجات الفسيولوجية فقط . بينما نجد الانسان ، في المقابل ، قد يضحي بحاجاته الفسيولوجية من أجل إرضاء اتجاهاته وقيمه وتحقيق أهدافه في الحياة .

(7) إن خبرة الانسان مع نفسه ، ومع مكونات بيئته التي عاش فيها وخاصة مع بني جنسه من البشر ، هي التي تشكل الواقع بالنسبة إليه . فهو على ضوء خبراته السابقة وبنائه النفسي يرى العالم من حوله الآن . فإذا كانت خبراته سعيدة ، فإنه يرى العالم من حوله مصدراً للسعادة ، ولا يحس أي تهديد ؛ بينما إذا

كانت خبراته الماضية مؤلمة فإنه يفقد الثقة في من حوله لكونه يراهم مصدراً باعثاً على الخوف والقلق . إن أفراد الانسان يختلفون في خبراتهم في الحياة منذ الطفولة فصاعداً ، ولذلك فإن كل واحد منهم يرى العالم بعينيه هو ، مثلهم في ذلك مثل مجموعة من الأفراد يرتدون نظارات اختلفت ألوانها ، ولذلك فإن كل واحد منهم يرى الواقع من حوله بلون النظارة التي يلبسها . وكما يقول كارل روجرز (Rogers ، 1963) فإن الانسان ينظر إلى ما يخبره بأنه واقع ويستجيب له بما يساعده على تحقيق ذاته .

(8) على الرغم من أن الفرد الانساني يتأثر بخبراته الماضية ، وبيئته الحالية ، فإن عنده الامكانية في أن يتخذ القرارات والحلول التي تجعله لا يكرر أخطاء الماضي . إن وعي الفرد بنفسه وبقدراته يجعله يستطيع أن يتوقع نتائج أفعاله ، ويساعده على اتخاذ القرارات .

إن هذه المبادىء التي تدور حول الحياة الانسانية ، بكل ما تشير إليه من خصائص مميزة للطبيعة الانسانية تبين بكل وضوح أن الانسان غير الحيوان ، وأنه لا رابطة بينهما إلّا وجودهما المشترك كمخلوقات فوق هذه الأرض التي اختارها الله لهما للحياة فوقها . إن النزعة الانسانية في علم النفس صرخة حق ، وحجة علم ، ودعوة للخير جاءت لمعاونة الانسان على أن يعرف حقيقة نفسه ، وجوهر وجوده ، مما يساعده على التفكير في صلته بالله الواحد الخالق العظيم الذي خلقه ورفع من قدره فوق باقي المخلوقات . إن نظرة الانسان لنفسه باعتباره إنساناً وليس حيواناً ضمن سلسلة التطور التي تصورها خيال دارون ، تزيد الانسان احتراماً لنفسه ، وتجعله يدرك دوره في الوجود ، ويسعى بكل جدية إلى أن يعمر الأرض التي جعلها الله له مقراً في الحياة الدنيا ، وأن يعرف الله ويعبده ويحمده على فضله .

إن هؤلاء العلماء الذين نادوا بالنزعة الانسانية في علم النفس هم علماء لهم باع طويل في هذا الميدان ، ولذلك يمكن القول بأن الطلاق الذي حدث بين هؤلاء العلماء ونظرية التطور ، وتعلقهم المخلص بعلم النفس الانساني يشير إلى أن هؤلاء العلماء قد بدأوا العودة إلى رشدهم وأمانتهم في البحث والتقصي والتحليل .

وإنه قد آن الأوان لأن يكفر علماء المسلمين بنظرية التطور ، ويشجعون تفسير النزعة الانسانية لعلم النفس باعتباره تفسيراً يتناسب مع الحقائق الأساسية

للشخصية الانسانية ، ولا يتعارض مع الحقائق القرآنية التي تؤكد بوضوح لا يقبل الجدل أن الله خلق الإنسان وحده ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ (سورة الرحمن ، آية 14)؛ ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون ﴾ (سورة يس ، آية 36)؛ ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ (سورة الروم ، آية 20).

وأن الله خلق الأنعام مباشرة من كل نوع زوجين اثنين ، أي الذكر والأنثى ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ (سورة الذاريات ، آية 49)، ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك ، لا إله إلاّ هو فأنى تصرفون ﴾ (سورة الزمر ، آية 6).

ونحن عندما نقول بأن بعض علماء النفس (وهم علماء المدرسة الانسانية في علم النفس) قد عادوا إلى رشدهم فإننا نقصد من وراء ذلك أنهم عادوا إلى طبيعتهم وإلى الطريق السليم ، وهو الاعتزاز بالانتماء إلى الجماعة الانسانية التي تتميز بخصائص مثل العقل والعلم والنمو . ونحن نتمنى لهؤلاء أن يستزيدوا في مصارحة أنفسهم ، والتخلص من تعصبهم ، وتحليل ما يتوفر لهم من بيانات علمية لأنهم إن فعلوا ذلك فإنهم سيجدون أنفسهم مدفوعين تلقائياً نحو الاسلام والقرآن حيث يعرف الانسان حقيقته ، ويفهم نفسه ، وتتجدد أهدافه في الحياة داخل المعامل الدراسية وخارجها .

كما أن ظهور النزعة الانسانية في علم النفس دليل أكيد على أن دور التبعية والتقليد الأعمى الذي تعوّد عليه علماء العلوم السلوكية من العرب والمسلمين قد فقد كل مصداقية ، وأصبح بدون لون أو طعم أو رائحة . إن علماء العرب والمسلمين مدعوون إلى هجر تفسير نظرية التطور في الكون والحياة بسبب بطلان هذه النظرية ، وصحة يقين التفسير القرآني للحياة الانسانية . وإذا كان المطلوب من علماء الشرق والغرب في العلوم السلوكية والطبيعية أن يعودوا إلى رشدهم في الايمان بالله خالقاً ، وبشرف الانسان على سائر المخلوقات ؛ فإن المطلوب من علماء العرب والمسلمين اليوم أن يتركوا دور الببغاء في محاكاة علماء الدول الأخرى ، وأن يبدعوا إبداع النجباء ، وأن يثبتوا على الايمان بالقرآن ، الذي كرّم الانسان .

المراجع العربية

حلمي المليجي (1972) : علم النفس المعاصر ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار النهضة العربية .

دوكلاس هـ . فرايـر وآخـرون (1965) : علم النفس العـام ، (تـرجمـة ابـراهيم يوسف المنصور) بغداد : مطبعة شفيق .

مصطفى محمود (1974) : حوار مع صديقي الملحد ، بيروت : دار العودة .

المراجع الأجنبية

Child, D. (1981) Psychology and the Teacher. London: Holt, Rinehart and Winston.

Darwin, C. (1859) On the Origin of the Species By Means of Natural Selection. London: Murray.

Maddi, S.R. (1972) Personality Theories. Illinois: Dorsey.

Maslow, A.H. (1962) Toward A Psychology of Being. New York: Van Nostrand.

Rogers, C.R. (1963) Toward a Science of the Person. Journal of Humanistic Psychology, (3) 72-92.

Sue, D. et al. (1981) Understanding Abnormal Behavior. Boston: Houghton Mifflin Co.

Stein, J. (1972) Effective Personality: A Humanistic Approach. Ca.: Brooks/Cole Publishing Co.